

أبعاد الزمن فى نونية ابن زيدون

[1]

لا شك أن نونية ابن زيدون (*) من أشهر قصائد ابن زيدون، وهي في الوقت نفسه من عيون الشعر العربي القديم، ومن أشهر قصائد الحب على الإطلاق. وقد كثرت الدراسات حولها لإظهار جمالياتها المتعددة.

وفي هذه الدراسة أدرس جانبًا واحدًا فيها، لعله - في ظني - لم يدرس فيها من قبل، ألا وهو إيقاع الزمن فيها.

وقد لاحظت أن عنصر الزمن أساسي في تكوين هذه القصيدة الرائعة، ويبدو صراع الشاعر واضحًا فيها مع ذلك الزمن الذي انقلب عليه في حاضره، ولم يُبق له سوى ذكريات الماضي السعيد يتأملها ويعيش على ذكراها، راجيًا أن يأتي المستقبل موصولًا بالماضي المبهج، وأن تتطوى صفحة الحاضر الحزين بلا رجعة.

ونرى ابن زيدون في هذه القصيدة يزوج في كل بيت - تقريبًا - من أبيات هذه القصيدة بين الماضي السعيد في علاقته بمحبوبته ولادة بنت المستكفي، وبين الحاضر البائس في هجرانها له، وتجاهلها إياه، وخلال تلك المزوجة التي تبرز المفارقة يبدو عند الشاعر تطلعات للمستقبل - تلوح في بعض الأبيات - بعودة الصفاء لعلاقته بولادة مما يعنى عودة الحياة له.

وفي رأيي أن هذه القصيدة تشبه السيمفونية في انسجام أنغامها، وتتابع حركاتها التي يلوح فيها الزمن حاضرًا معبرًا بقوة عن أثره في تبدل العلاقة بين الشاعر ومحبوبته.

(*) ابن زيدون (394-463هـ / 1004-1071م) هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون، المخزومي الأندلسي، أبو الوليد: وزير كاتب شاعر، من أهل قرطبة، انقطع إلى ابن جهور (من ملوك الطوائف بالأندلس) فكان السفير بينه وبين الأندلس، فأعجبوا به. واتهمه ابن جهور بالميل إلى المعتضد بن عباد، فحبسه، فاستعطفه ابن زيدون برسائل عجيبة فلم يعطف، فهرب واتصل بالمعتضد صاحب إشبيلية فولاه وزارته، وفوض إليه أمر مملكته فأقام مبعلاً مقرَّباً إلى أن توفي بإشبيلية في أيام المعتمد على الله ابن المعتضد. وهو صاحب أضحى التنتائي بدلاً من تدانينا من القصائد المعروفة. وأما طبقته في النثر فرقيقة أيضاً، وهو صاحب "رسالة ابن زيدون - ط" التهكمية، بعث بها على لسان ولادة إلى ابن عبدوس وكان يزاحمه على ولادة بنت المستكفي. وله رسالة وجهها إلى ابن جهور - طبعت مع سيرة حياته في كوبنهاجن، وله ديوان شعر - ط، ولعلني عبد العظيم ابن زيدون، عصره وحياته وأدبه - ط. ويرى المستشرق كورن سبب حبسه اتهامه بمؤامرة لإرجاع الأمويين. انظر في هذا: الأعلام، 158/1.

- ويمكن أن نقسم هذه القصيدة، إلى سبعة مقاطع – أو حركات – يوجد بينها اتصال وتفاعل قوى، وكل مقطع منها ينسجم مع ما قبلها ويهيئ للمقطع الذى يليه، وهى كالاتى:
- ١ للمزج بين الماضى والحاضر.
 - ٢ تصوير الحاضر وحال الشاعر فيه.
 - ٣ تذكره الماضى الجميل مع ولادة والتحسر لفقده.
 - ٤ آماله فى المستقبل المرجو.
 - ٥ استحضاره صورة محبوبته يتعزى بها عن فقده إياها.
 - ٦ للمزج مرة أخرى بين الماضى والحاضر.
 - ٧ تصوير حال الشاعر فى الحاضر وتأكيده على أنه لا يسلو محبوبته أبداً.
 - ٨ آمال الشاعر فى المستقبل فى عودة الوصال بينه وبين محبوبته.
- والملاحظ أن مقاطع القصيدة – كما تصوّرنا هذه العناوين – يتراءى فيها الزمان، ويلونها ما بين استحضار الماضى أو المستقبل أو المضارع، أو كلها معاً، من خلال إظهار الصراع بين الماضى والحاضر وترقب المستقبل المرجو الذى يخلصه من ذلك الصراع المؤلم بين الماضى السعيد والحاضر التعيس.
- وها نحن نصوّر هذه المقاطع المتتالية لهذه القصيدة، ونظهر أبعاد الزمن فيها، وخلال ذلك نظهر مدى الترابط العضوى بين أجزائها.

[2]

المزج بين الماضى والحاضر

فى المقطع الأول من هذه القصيدة، – الذى عنوانه بـ"المزج بين الماضى والحاضر" – يبدو الصراع شديداً بين الشاعر والزمن، وتلوح فيه مفردات الزمن معبرة عن حضوره القوى فيه، مثل "الدهر، الزمان، صبح، اليوم"، وتكرر فيه كلمة الدهر مما يوحى بسيطرته على الموقف، وأن صراع الشاعر الحقيقى فى هذه القصيدة هو معه، يقول الشاعر:

- (٦) وَأَصَى التَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا
وَنَابَ عَن طَيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا (٦)
- (٧) أَلَا وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ صَبَّحْنَا
حَيْنٌ فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِينَا (٧)
- (٨) مَن مَبْلُغِ الْمَلْبَسِينَا بِأَنْتِزَاحِهِمْ
حُزْنَا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَبْلَى وَيُبْلِينَا (٨)
- (٩) أُنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَا زَالَ يُضْحِكُنَا
أُنْسًا بِقُرْبِهِمْ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا (٩)
- (١٠) غَيْظَ الْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى فَدَعُوا
بِأَنَّ نَعَصَّ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا (١٠)
- (١١) فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا
وَأَنْبَتَ مَا كَانَ مَوْصُولًا بِأَيْدِينَا (١١)
- (١٢) وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا
فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِينَا (١٢)

ومما يدل على حضور الزمن القوى في هذه الأبيات إلى جانب ما ذكرناه من تعدد ذكر مفردات الزمن فيها خاصة مفردة الدهر – أننا نرى الشاعر يُشخِّص الدهر فيها، وكأنه هو الذى قضى على أيام الوصال بين الشاعر ومحبوبته، يقول الشاعر فى ذلك:

غَيْظَ الْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى فَدَعُوا
بِأَنَّ نَعَصَّ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا
فَإِنْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا
وَأَنْبَتَ مَا كَانَ مَوْصُولًا بِأَيْدِينَا

إذن فقد كان انهيار علاقة الشاعر بمحبوبته ليس فقط بوشايات الأعداء، ولكن أيضًا بمباركة الدهر لها، ولولا مباركتها لقطع هذه العلاقة ما تم الفراق بينهما.

وقد نتج عن تدخل الدهر فى قطع هذه العلاقة أن تبدلت الحال مع الشاعر؛ فغدت أيامه الحاضرة كثيبة تعيسة مقارنة بأيامه السابقة فى الماضى التى كان فيها وصال دائم سعيد بين الشاعر ومحبوبته:

(٦) التَّنَائِي: البعد، ناب: حل.
(٧) البين: الفراق، الحين: الهلاك، ناعينا: الناعي المبلغ بالموت والمصائب.
(٨) الملبسين: الذين ألبسونا ثوب الحزن على الدوام بسبب بعدهم عنا وفرط شوقنا إليهم، بانتزاحهم: ببعدهم.
(٩) غيظ: اغتاظ، العدا: الأعداء، غص بالماء: شرق به أو وقف فى حلقة.
(١٠) معقودًا: مربوطًا، انبت: انقطع.
(١١) وقد رجعنا فى تخريج هذه القصيدة – بشكل أساسى – إلى ديوان ابن زيدون "رسائله، أخباره، شعر الملكين". شرح وضبط وتصنيف: كامل كيلانى، وعبد الرحمن خليفة. طبع بمطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ط 1، 1351هـ/1932م، ص 4-8، وتمت الاستعانة أيضًا بالرجوع لديوان ابن زيدون. دراسة وتهذيب: عبد الله سنده. بيروت، دار المعرفة، ط 1، 1426هـ/2005م، ص 11 – 16.

وقد نكون وما يُخشى تفرقتنا

فاليوم نحن وما يُرجى تلاقينا

إن هذا البيت الأخير في ذلك المقطع الأول من هذه القصيدة يوضح مدى تدهور العلاقة بين الشاعر ومحبوبته، فقد صار الأمل في تلاقى الشاعر بمحبوبته ضعيفاً لا يرجى تحققه، وتبدو كلمة اليوم – وهي إحدى مفردات الزمن – معبرة عن حال الشاعر في الحاضر من يأسه في مواصلة علاقته بمحبوبته ولادة، وكما كان الدهر مشاركاً في قطع هذه العلاقة فإن اليوم يصور تدهورها وضعف الأمل في وصالها من جديد.

ومن الواضح في هذا المقطع أن كل بيت فيه يعطى مفارقة بين تصوير الماضي السعيد في علاقة ابن زيدون بولادة، وتصوير الحاضر الحزين في انقطاع هذه العلاقة وأثر انقطاعها المؤلم على نفسية الشاعر.

وكان كل بيت في هذا المقطع هو صرخة من الشاعر للزمن؛ لم فعلت هذا؟!، ولم شاركت فيه؟!، ولم أظهرت لنا الصفاء حيناً ثم انقلبت علينا?!:

مَنْ مَبْلُغِ الْمُبْسِينَا بَانْتِرَاحِهِمْ حُزْنَا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَبْلَى وَيُبْلِينَا
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَا زَالَ يُضْحِكُنَا أَنَسًا بُقْرِبَهُمْ قَدِ عَادَ يُبْكِينَا

[3]

تصوير الحاضر وحال الشاعر فيه

وبعد أن صور ابن زيدون صراعه مع الزمن، وكيف كان حاله في الماضي ثم التطور الذي ألمه في الحاضر، أراد أن يشعرنا بثقل هذا الحاضر عليه، فأفرده في المقطع التالي بالحديث عنه.

- (١) كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ تُسَلِّبُنَا عَوَارِضُهُ وَقَدْ يَسِّنَا فَمَا لِلْيَأْسِ يُعْرِينَا
(٢) بِنْتُمْ وَبِنَّا فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَاقِينَا
(٣) نَكَادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا

(١) المعنى: كنا نظن أن اليأس يسلي، فما بال يأسنا يزيدنا ولو عا بكم.
(٢) بنتم: بعدتم، بنا: ابتعدنا، فما ابتلت جوانحنا: فما نعمنا ونسينا عهدكم، ودموعنا لم تجف من البكاء حزناً على فانت الأيام، ماقى: جمع ماق، والماق: مجرى الدمع من العين.
(٣) الأسى: الحزن، التأسى: التعزى.

لقد بدأ اليأس يتسرّب للشاعر حول إمكانية عودة الوصال بينه وبين محبوبته؛ ومع ذلك فهذا اليأس يغريه بالتعلق بها، بدلاً من أن يصرفه عن ودّها.

وها هو ذا في حاضره لا يراها ومع ذلك لا يتوقف شوقه نحوها، ولا تتوقف عيناه عن البكاء عليها، ويكاد حين مناجاته إياها – على البعد – أن يقضى عليه الحزن، لقطعها علاقتها به.

وفي هذا المقطع الذى يصور الشاعر فيه حاضره لا نرى إلا تعبيره عن تجرعه الآلام، وتمكن الحزن منه الذى يكاد يقضى عليه لولا تمسّكه ببعض الأمل.

ومن هنا فهذا المقطع الذى يصوّر الحاضر يلوّنه الشاعر بالمرارة التى يشعر بها، وتبدو الأفعال المضارعة معبّرة عن استمرار إحساس الشاعر بهذه المرارة فى حاضره مثل "نرى، تسلينا، يئسنا، يغرينا، نكاد، تناجيكم، يقضى، تأسينا".

[4]

تذكّره الماضى الجميل مع ولّادة والتحسّر لفقده

وكان لابد للشاعر أن يتمسك بشيء يخفف عنه الإحساس بهذه المرارة الشديدة التى تكاد تقضى عليه، ومن هنا فلم يكن أمامه سوى شريط الذكريات الجميل فى الماضى، وقد استعاد من خلاله أيام الوصال بينه وبين محبوبته. إن هذه الذكريات كالبلسم الذى يخفف من آلامه فى الحاضر، وإن كان الحاضر فى هذا المقطع يلوح أحياناً ليذكّر الشاعر بأن هذه الذكريات الجميلة فى الماضى قد مرت ومضت، ولم يبق للشاعر سوى أن يفيق لحاضره المؤلم، يقول الشاعر:

- (١) حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَعَدَّتْ سُودًا وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضًا لَيَالِينَا
إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَّقَ مَنْ تَأَلَّفْنَا وَمَرَبَعُ اللّهُو صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
(٢) وَإِذْ هَصَرْنَا فُنُونَ الوَصْلِ دَائِنِيَّةً قَطَافُهَا فَجَنِينَا مِنْهُ مَا شِينَا

(١) حالت: تحولت، غدت: صارت.

(٢) هصرنا: جذبنا، فنون: ألوان، دانية قطوفها: قريبة المنال، شينا: شئنا. والمعنى: فكان الشاعر استعار للوصل أفتاناً يهصرها أى يميلها إليه عند اقتطاف زهرها واجتناء ثمرها.

لِيُسْقَ عَهْدُكُمْ عَهْدَ السُّرُورِ فَمَا كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَّاحِينَا (٦)

والملاحظ أن الشاعر لم يسترسل في حديثه عن الماضي السعيد في علاقته بولادة، واكتفى بهذه الأبيات التي تشير لجمال هذا الماضي وحسنه وكيف أن الشاعر تتعم بالسعادة فيه في وصاله مع ولادة. لقد كان العيش جميلاً والحياة صافية، وقطف الشاعر مع محبوبته كل ثمار المتع في ذلك الماضي السعيد، وكان عهده معها هو عهد السرور في الماضي.

هذا هو كل ما قاله الشاعر حين صور ماضيه السعيد، كلام عام، لا تفصيل فيه. ولم يُفصّل الشاعر هذا النعيم الذي كان له مع ولادة في الماضي ولم يسترسل في الحديث عنه؛ لأن شعوره بالحزن على مدار القصيدة كلها يسيطر عليه، ولو أنه استرسل في وصف هذا النعيم الذي كان في الماضي لخالف شعوره بالحزن الذي يسيطر عليه على مدار القصيدة كلها، ويلونها بجوها الحزين، ويعمل على ترابطها العضوي ووحدها.

[5]

آماله في المستقبل المرجو

ويبدو أن حديث الشاعر في المقطع السابق عن الماضي الجميل، وذكرياته الحلوة فيه قد أغراه بأن ينظر للمستقبل، ويعلق آماله به في أن يعود الوصال بينه وبين محبوبته ولادة مرة أخرى، يقول ابن زيدون:

يا سارِيَ الْبَرْقِ غَادِ الْقَصْرِ وَاسْقِ بِهِ مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوَدَّ يَسْقِينَا (٦)
وَاسْأَلْ هُنَالِكَ هَلْ عَنَى تَذَكُّرُنَا إِفَّا تَذَكَّرُهُ أَمْسَى يُعَنِّينَا (٧)
وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا مَنْ لَوْ عَلَى الْقُرْبِ حَيًّا كَانَ يُحْيِينَا
فَهَلْ أَرَى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مُسَاعَفَةً مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَبًّا تَقَاضِينَا (٨)

(٦) ليسق: أى سقاها الله من غيئه، وهو دعاء بالرحمة، والمعنى: سقياً لعهدكم عهد السرور.

(٧) غاد: باكره بالغمام أول النهار.

(٨) المعنى: هل شغل من نألفه بذكرنا كما شغلنا تذكره.

(٩) الغب في الزيارة أن تكون كل أسبوع والمقصود هنا القلة. والمعنى: إننا لم نتفاض الوصال من

الدهر غباً، ولكننا تقاضيناه بإلحاح، فهل ترى الدهر - بعد هذا - يسعفنا.

إن الشاعر في هذا المقطع يُشرك بعض عناصر الطبيعة معه في مشكلته في قطع الوصل بينه وبين ولادة، ويأمل أن يكون لهذه العناصر دور في إعادة هذه العلاقة كما كانت عليه من صفاء في الماضي. فها هو يطلب من البرق ونسيم الصبا أن يبلغا ولادة ويبلغا تحيته، عساها أن ترد عليه تلك التحية؛ فتعود له حياته السعيدة.

وعناصر الطبيعة التي تحدث عنها الشاعر في هذا المقطع بدت مُشخّصة، كأنها أشخاص يستعين بهم الشاعر في ترضي محبوبته، ولعله استعان بهذه العناصر من الطبيعة بعد أن ينس من مساعدة الناس له في عودة الوصال بينه وبين محبوبته ولادة، ولم لا وقد كان بعض الناس هم الذين قاموا بالوشايات بينه وبين ولادة - كابن عبدوس - فصدّقهم، وقطعت علاقتها به، ولم يبق له إذن إلا أن يستحضر عناصر الطبيعة لعلها تقنعها ببراءته، وصفاء حبه لها.

ويدرك ابن زيدون أن عناصر الطبيعة هذه مهما كان الدور الإيجابي الذي تلعبه لإراحة نفسه، وليث الأمل فيها، فإن الطرف الأهم الذي يجب استرضائه عسى الوصال أن يعود بينه وبين ولادة - هو الدهر، ولهذا يقول:

فهل أرى الدهرَ يُفْضِينَا مُسَاعَفَةً مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غِبًّا تَقَاضِينَا

إنه يلجّ على الدهر أن يعيد الوصال من جديد بينه وبين ولادة حتى وإن كان وصالاً على فترات بعيدة، المهم أن يعود ذلك الوصال.

[6]

استحضاره صورة محبوبته يتعزّى بها عن فقده إياها

وتعلق الشاعر بالأمل في المستقبل -كما رأينا في المقطع السابق- يجعله يستحضر صورة ولادة بكل ما احتوته من فتنة وجمال، فكأنها حاضرة معه بهذا الوصف الذي يغريه بمواصلة حبها، ويغريه بالتعلق بالأمل في أن يعود الوصال بينهما من جديد، يقول الشاعر مصوراً بريشة أحاسيسه محبوبته:

- رَبِيبٌ مُلْكٍ كَأَنَّ اللَّهَ أَنْشَأَهُ (١)
 أَوْ صَاغَهُ وَرِقًا مَحْضًا وَتَوَجَّهَ (٢)
 إِذَا تَأَوَّدَ آدَتُهُ رَفَاهِيَّةً (٣)
 كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظُنْرًا فِي أَكْلَتِهِ (٤)
 كَأَنَّمَا أَثْبَتَتْ فِي صَحْنٍ وَجَنَّتِهِ (٥)
 مِسْكًَا وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينًا (٦)
 مِنْ نَاصِعِ النَّبْرِ إِبْدَاعًا وَتَحْسِينًا (٧)
 تُومُ الْعُقُودِ وَأَدْمَتُهُ الْبُرَى لِينًا (٨)
 بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَايِينَا (٩)
 زُهْرُ الْكَوَاكِبِ تَعْوِيدًا وَتَرْيِينَا (١٠)

ولعلَّ الشاعر بتصويره ولادة بهذا الحسن الفاتن المثالي – إضافة لما قلته من قبل – يتعرّى بذلك عن فقدته إياها، أو هو يرسم لها بالكلمات لوحة تخلدها في خياله، فيراها في كل حين وإن غابت بجسدها عن عينيه، و هو يقاوم الدهر الذي فرق بينهما، وأبعدها عنه، فها هو يستحضر صورتها في شعره بكل ما تحويه من فتنة وسحر، وهذه الصورة التي ستبقى في عينيه دائمًا، وستبقى إلى قيام الساعة في أذهان كل من يقرأ أو يسمع هذه الأبيات. وكان الشاعر يقول للدهر يمكنك أن تبعدها بجسمها عني ولكنني أستحضر صورتها بخيالي، ولا تستطيع أن تمنعني من ذلك، وفي هذا بعض العزاء لى، كما أن هذه الصورة التي أرسمها بخيالي وكلماتي لها ستبقى خالدة مدى الحياة، وفي هذا مقاومة للزمن، بل لعل الشاعر بهذا المقطع يتحدى الزمن ويرى أنه يمكنه أن يستعلي عليه أحيانًا.

وأوصاف الشاعر لمحبوته – فى هذا المقطع – تبدو مثالية – وشأنه فى ذلك شأن أكثر الشعراء العرب القدماء فى وصفهم محبوباتهم

فلا يعطينا ابن زيدون أوصافًا محدّدة لمحبوته تُميّزها عن غيرها من النساء، بل إنه يتحدث عنها على أنها نموذج للجمال والسحر والفتنة؛

(١) المعنى: ليس هذا المحبوب مخلوقًا من طين أو تراب كسائر البشر كلاً، وإنما هو طينه من المسك.
 (٢) الورق: الفضة، التبر: الذهب، والمعنى: يريد أن الله أبدعه ناصع البياض وتوجّه بشعر ذهبي.
 (٣) تأوّد: تثنى، آدته: أثقلته، توم العقود: عقود الفضة كالدر، أدمته البرى: تسببت الخلاخيل فى خروج الدم منه لشدة لينها، والمعنى: يقول إذا تثنى آدته أى أثقلت وشق حملها عليه، توم، أى لآلى العقود وجرحته (البرى) أى الخلاخيل، وذلك لرفاهته.
 (٤) ظنرًا: مرضعة، أكلة: جمع كلة، وهى ستر رقيق يقى من البعوض.
 (٥) صحن وجنته: صفحة خده. والمعنى: أن جماله استعار زهر الكواكب لتكون زينة له، وتعويذة من عيون حاسديه.

ولعل هذا يعود لكونه - وغيره من الشعراء العرب القدماء - يرى في محبوبته مثال الجمال والروعة، فلا يسعه إلا أن يصفها وصفًا مثاليًا.

فهي مخلوقة من مسك وسائر البشر مخلوقون من طين، أو هي مخلوقة من الفضة والذهب، كما أنها شديدة الرقة حتى إن تثنيها ينقلها ويؤلمها، والحلى التي في يديها وحول رقبتها وفي قدميها تؤلمها أيضًا لرقنتها ونضارة بشرتها، ولحسنها الشديد فإن مُرضعتها هي الشمس؛ ولذا بدت مشرقة مثلها، وبدا الحسن الذي على وجنتيها شبيهًا ببريق الكواكب المشرقة.

وهكذا يسترسل الشاعر في وصف محبوبته مستحضرًا مفردات الكمال، وكأنه يتحدث عن امرأة هي مثال الجمال والحسن، ولم لا وهو يراها من خلال حبه إياها أجمل البشر، بل هي غير البشر في الحسن والفتنة كأنها هبطت إلى الأرض من عالم المثل الذي تحدث عنه أفلاطون.

والإشارة الوحيدة في هذه الأبيات التي تربط ولادة بالواقع هي قول الشاعر عنها "ربيب ملك"، فهي ابنة آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس، ألا وهو الخليفة المستكفي، ولا شك أن هذه النشأة هيأت لها الحياة الرغدة، على أن الشاعر لم يقل شيئًا حول وصف ولادة وربطها بالواقع سوى هذه العبارة، ثم انطلق بخياله إلى عالم المثل ليصور لنا جمالها المثالي.

[7]

وفي المقطع التالي يستمر ابن زيدون في وصف ولادة وصفًا مثاليًا، ويمزجه بالحديث عن مشاعر حبه نحوها، وخلال ذلك يستحضر ذكر النعيم الذي حام حولهما في الماضي.

فهو في المقطع التالي يستمر في وصف جمالها، ولكنه يعكس أثر هذا الجمال على نفسه، وإحساسه بالمرارة الشديدة لفقده هذه المحبوبة التي احتوت كل هذا الجمال المثالي، يقول:

يَا رَوْضَةً طَالَمَا أُجِنْتُ لَوَاحِظَنَا وَرَدًّا جَلَاءُ الصَّبَا غَضًّا وَنَسْرِينَا^(٢)

(٢) روضة: حديقة، والجمع رياض، أُجِنْتُ: جعلتها تجنى وتقطف، النسرين: الورد الأبيض.

- وَيَا حَيَاةَ تَمَلِّينَا بِزَهْرَتَيْهَا (٦)
 مَنَى ضُرُوبًا وَلَدَاتِ أَفَانِينَا (٦)
 وَيَا نَعِيمًا خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ (٧)
 فِي وَشَى نُعْمَى سَحْبِنَا ذَيْلُهُ حِينَا (٧)
 لَسْنَا نُسَمِّكَ إِجْلَالًا وَتَكْرِمَةً (٨)
 وَقَدْرُكَ الْمُعْتَلَى عَن ذَاكَ يُغْنِينَا (٨)
 إِذَا أَنْفَرَدْتَ وَمَا شُورِكْتَ فِي صِفَةٍ (٩)
 فَحَسْبُنَا الْوَصْفُ إِضَاحًا وَتَبْيِينًا (٩)

فهذه المحبوبة هي روضة طالما استمتع الشاعر بالنظر إلى
 محاسن الجمال بها، وهي حياة مبهجة استمتع بالعيش معها ، وهي أيضاً
 نعيم نال من بهجته.

إنها بهذه الأوصاف مثال للجمال – كما قلنا من قبل – استمتع
 الشاعر به حيناً من الزمان ثم أبعد عنه، فكأنه كان في جنة الفردوس ثم
 طرد منها، وأصبح ملقى في الأرض وحيداً غريباً يبكي على أيامه
 السعيدة في ذلك الفردوس المفقود.

[8]

المزج مرة أخرى بين الماضي والحاضر

- ويبدأ ابن زيدون مقطعه التالي مناجياً جنة الخلد – أى ولادة –
 فبعد أو وصفها في المقطع السابق بأوصاف الجنة، لم يبق إلا أن يناديها
 باسمها فهي جنة الخلد.

(٦) تملينا: تمتعنا ونعمنا، ضروباً: أنواعاً، أفانين: ألوان.
 (٧) خطرنا: مسناً شئء، غضارته: نضرتة، في وشى: فى نعمى كالثوب الصافى ذى الوشى أى
 النقش، سحبتنا: جررنا، خيلاء وزهوا.
 (٨) المعتلى: العالى رفعة.
 (٩) حسبتنا: يكفيننا.

وفى ذلك المقطع يعود الشاعر مرة أخرى ليمزج بين الماضى والحاضر، تلك النغمة التى بدأ بها قصيدته، والتى تلوح فى أكثر أبيات هذه القصيدة، يقول الشاعر:

- يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبَدَلْنَا بِسِدْرَتَيْهَا (١)
وَالْكَوْثَرَ الْعَذْبَ زَقُومًا وَغَسَلِينَا (٢)
كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا (٣)
وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَأَشِينَا (٤)
سِرَّانِ فِي خَاطِرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا (٥)
لَا غَرَوْ فِي أَنْ ذَكَرْنَا الْحُزْنَ حِينَ نَهَتْ (٦)
حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا (٧)
عَنْهُ النَّهْيُ وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا (٨)
إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ النَّوَى سُورًا (٩)
مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا (١٠)

ومزج الشاعر بين الماضى السعيد والحاضر المؤلم فى هذا المقطع يبدو أشدَّ مرارة مما كان عليه الأمر فى أول مقطع فى هذه القصيدة. وقد ركز الشاعر هنا على تصوير المرارة التى يشعر بها بعد طرده من جنة الخلد، واكتفى بذكر إشارات سريعة من المتع التى نعم بها حين كان فى تلك الجنة.

ومن هنا فإن ذلك المزج - فى هذا المقطع - بين الماضى والحاضر، تغلب فيه الماضى على الحاضر؛ لشدة المرارة التى يشعر بها الشاعر بعد مفارقتها هذه الجنة، فبدأ الحاضر مؤلمًا يكاد يطغى على الذكريات الجميلة التى كانت للشاعر فى الماضى.

ولم يبق للشاعر إذن فى حاضره إلا أن يتعزى بالصبر، عساه أن يتحمل قسوة الفراق وحدته.

[9]

(١) السدرة: شجرة نبق عن يمين العرش، الزقوم: طعام أهل النار، الغسلين: شراب أهل النار.
(٢) السعد: الحظ الحسن، غض: أنامه عنا فلم يش بنا، الواشى: الحاقد الذى يمشى بين المحبين بالسوء.
(٣) سِرَّان: سر المحبة، وسر عدم الإفصاح، لسان الصبح: ضحوة النهار.
(٤) لا غرو: لا شك، النهي: العقول.
(٥) الأسى: الحزن، الفراق، سُورًا: كما سور القرآن تتلى، أخذنا الصبر تلقينا: الصبر قد طبع فينا وثبت.

تصوير حال الشاعر فى الحاضر وتأكيده على أنه لا يسلو محبوبته
أبدًا

ولهذه المرات التى يشعر بها الشاعر بعد طرده من جنة ولادة،
فإن الذكريات الجميلة تكاد تختفى وتحلّ مكانها المرات؛ ولذا يعود
الحاضر المؤلم جاسمًا على قلب الشاعر، يقول:

- أَمَّا هَوَاكِ فَلَمْ نَعِدْ بِمَنْهَلِهِ شُرْبًا وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِينَا (١)
لَمْ نَجْفُ أَفَقَ جَمَالٍ أَنْتِ كَوَكْبُهُ سَالِيْنَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِيْنَا (٢)
وَلَا اخْتِيَارًا تَجَنَّبَاهُ عَنْ كَثَبِ لَكِنْ عَدَّتْنَا - عَلَى كُرْهِ - عَوَادِيْنَا (٣)
نَأْسَى عَلَيْكِ إِذَا حُتَّتْ مُشْعَشَعَةٌ فَيِنَا الشَّمُولُ وَغَنَانَا مُغْنِيْنَا (٤)
لَا أَكُوسُ الرِّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمَائِلِنَا سِيمَا ارْتِيَاكِ وَلَا الْأَوْتَارُ تُلْهِيْنَا (٥)

هذا هو حال الشاعر فى حاضره يتذكر ولادة فى كل حين،
ويراها مثال الجمال والفتنة، فهى على حد قوله "أفق جمال".

ولا شىء فى هذه الحياة يمكنه أن ينسيه إياها، أو يريحه من الآلام
التى يشعر بها بعد هجرها إياه كشربه الخمر أو سماعه غناء المغنين،
فكل وسائل اللهو لا تجدى معه فى تخفيف الآلام التى يعانىها بعد هجرها
إياه، كما أنه لا يمكنه أن ينساها بأى حال من الأحوال.

[10]

آمال الشاعر فى المستقبل

(١) هواك: حبك، يروينا فيظميننا: كلما شربنا منه ازداد نهمنا له، فلم نزل بين شرب وعطش.
(٢) ساليين عنه: ناسين، أو تاركين مودته، قاليين: تاركين ذلك هجرانًا.
(٣) كَثَب: قرب، عدتنا: أتت علينا الأيام، عوادينا: الفواجع والدواهي، والمعنى: لم نتجنبه عن كَثَب
أى قرب اختيارًا، ولكن صرفتنا على كره منا شواغلنا.
(٤) نَأْسَى: نحزن، حُتَّتْ: أخذت عن آخرها، الشمول: الخمر، مشعشة: ممزوجة، والمعنى: أى
نحزن لغيابك عن مجلسنا إذا حثت الشمول الممزوجة.
(٥) الراح: الخمر، تبدى: تظهر، شمائلنا: أخلاقنا.

هذا هو حاضره المؤلم، وذلك هو واقعه المرير؛ ولذا لم يبق له إلا أن يتعلق بالأمل فى المستقبل ذلك الأمل الذى يعنى رضاها عنه، وعودة الوصال بينهما من جديد، وهذا ما يعبر عنه الشاعر فى المقطع التالى والأخير:

- دُومى عَلَى الْعَهْدِ - مَا دُمْنَا - فَالْحُرُّ مَنْ دَانَ إِنْصَافًا كَمَا دِينَا (١)
مُحَافِظَةً
فَمَا اسْتَعَضْنَا خَلِيلًا مِنْكَ يَحْبِسُنَا
وَلَا اسْتَفَدْنَا حَبِيبًا عَنْكَ يَتَّئِنَا
وَلَوْ صَبَا نَحْوَنَا مِنْ عَلُوِّ مَطْلَعِهِ (٢)
أَبْكَى وَفَاءً - وَإِنْ لَمْ تَبْدَلِ صِلَةً - فَالطَّيْفُ يُقْنِعُنَا وَالذَّكْرُ يَكْفِينَا (٣)
وَفِي الْجَوَابِ مَتَاعٌ إِنْ شَفَعْتَ بِهِ
بِيضَ الْأَيْدَى الَّتِي مَا زِلْتِ تُولِينَا (٤)
عَلَيْكَ مِنَّا سَلَامٌ اللَّهُ مَا بَقِيَتْ
صَبَابَةٌ بِكَ نُخْفِيهَا فَتُخْفِينَا (٥)

ها هو الشاعر يستعطف محبوبته فى أن تعود لعهد الوصال الذى كان، ويأمل أن تحافظ على حبل الود الذى كان بينهما كما يحافظ عليه هو، ويؤكد لها أن بدر الدجى لو تمثّل له امرأة ما عشقه كما يعشقها، فهى من دون النساء حبه وغرامه، ولن يستبدل بها أحدًا، ويأمل أن تكافئه على ذلك بعودة الوصال بينهما من جديد.

ويدرك الشاعر بعد أن عرض تجربته فى المقاطع السابقة أن عودة ذلك الوصال يبدو احتمالاً ضعيفاً بل هو أقرب للمستحيل، ومع ذلك يتمسك به الشاعر، وفى الوقت نفسه يحاول أن يهيب نفسه لاحتمال عدم تحققه؛ ولهذا يقول لها: إن طيفها وحديثه إليه يكفيه إن إصرت على تلك القطيعة معه، يقول فى ذلك:

أَبْكَى وَفَاءً - وَإِنْ لَمْ تَبْدَلِ صِلَةً - فَالطَّيْفُ يُقْنِعُنَا وَالذَّكْرُ يَكْفِينَا

ويختم الشاعر قصيدته بتوجيهه السلام إلى محبوبته، وهو سلام يرجو أن يتردد صدها فى الدنيا ما دام عشقه لها فى قلبه مستمرًا، ويقول

(١) المعنى: دومي محافظة على العهد ما دمنا محافظين فالحر المنصف يجزى كما جوزى.

(٢) صبا: مال، يصيبنا: يأخذنا فننساك.

(٣) متاع: سرور، شفعت به: قرنت به، بيض الأيادي: كناية عن الكرم، تولينا: تعطينا.

(٤) صبابة: محبة، نخفيها: نسترها، فتخفيها: تظهرنا وتفضحنا.

إنه مهما حاول كتمان ذلك العشق فإنه يظهر عليه ويفضحه؛ لعدم قدرته على كتمانها إياه.

وهكذا يحاول الشاعر أن يتماسك في ذلك المقطع الأخير من القصيدة، إما بالأمل في عودة وصال محبوبته له – وهو أمل يبدو تحققه ضعيفاً جداً – أو باستحضار طيفها ليناغيه في كل وقت وحين، ومن هنا فإنه يحاول أن يشعر نفسه بقدر من الهدوء.

ولكنه – في رأبي – هدوء لا استقرار له؛ لأن الماضي قد يحاصره بالذكريات من جديد ويتصارع مع الحاضر؛ فيكون الشاعر ضحية ذلك الصراع لعدم قدرته على التعايش الآمن في ذلك الواقع المرير.

ومن هنا فلا تعنى نهاية هذه القصيدة خلود الشاعر إلى سلام حقيقي، بل هو سلام مؤقت؛ لا شك أن الشاعر سوف يشعر بالمرارة من جديد حين يثقل عليه عبء الحاضر، ويقارنه بالماضى الجميل، ولا يبقى عنده إلا الأمل بالمستقبل الذي تعود فيه علاقته بولادة إلى سابق عهده بها.

وهكذا يظل الشاعر في هذه القصيدة متأرجحاً بين أبعاد الزمان المختلفة، ونرى أنه لا فكاك له من الخلاص منه.